### الشّاعر التّونسي سوف عبيد والمغامرة من أجل التأسيس:
# الصّحراء حيّز الطّفولة ومبعث الحلم

**تجربة الحداثة في الشّعر العربي المكتوب في تونس لم تبدأ مع أبي القاسم الشّابي، فهي تتجذّر بعيدا في التّاريخ، وخاصّة في نظريات ابن رشيق القيرواني النّقديّة التّي تبدو اليوم متقدّمة عن عصرها، وفي النّماذج الشّعريّة الواردة من بلاد الأندلس، ومنها الموشّحات، هذا النّوع الذي ظلّ شعراء المنطقة يتعاطونه خلال قرون طويلة. لكن التّاريخ لم يكن رحيما تجاه شعراء غرب الوطن العربي، فقد تناساهم تماما، وعتّم على إبداعاتهم، فظلّت أسماؤهم قابعة بين صفحات المخطوطات الصّفراء، دون أن ترى النّور أو تلقى أدنى اهتمام من الباحثين، القدامى منهم والمحدثين. هذا ما يراه الشّاعر التّونسي سُوف عبيد: رجل قدم من عمق الصّحراء ليزرع سماء المدن بالنّجوم، ونشر ما أخذه عن أجداده من شعراء البادية. لسوف عبيد ثلاثة دواوين: "الأرض عطشى" (1980)، "نوّارة الملح" (نشر دار ديميتير 1985) و"المرأة الفسيفساء" (نشر دار الرّياح الأربعة 1985).**
**التقته "الموقف العربي" وحاورته حول الشّعر، والتّاريخ والوطن.**

- الشّعر العربيّ في مغرب الوطن العربي ظلّ دوما يسير خلف خطى الشّعر العربي الذي يكتب في المشرق فلم لم يتقدّم عليه ولا تميّز عنه، ما هو رأيك؟

- هذه المسألة توضع ضمن إطار قديم، ألا وهو أدب المغرب وأدب المشرق، لقد كتب ابن بسّام الشنتريني منذ القرن الخامس الهجري كتابه "الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة" الذي يبدي فيه فضائل أهل المغرب عامّة في الأدب مناقضا كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربّه، كأنّه أراد أن يثبت للمشرق أنّ مقولة "هذه بضاعتنا رُدّت إلينا" ليست صحيحة، واستشهد خاصّة بالموشّحات، ونجد كذلك هذا التّنافس بين الشّعراء أنفسهم، مثل المتنبّي وابن هانئ الذي يُلقّب بمتنبّي المغرب، ولكن الأمر عندي يُنظر إليه بمنظار التّنافس نحو الأحسن، لا أكثر ولا أقلّ، وكلّ نظرة تتجاوز هذا المبدأ، فإنّما تؤول إلى مفاخرات لا طائل منها، وقد تُغذّي النعرات العرقيّة والأطروحات السياسيّة، والمهمّ أنّ العلاقة بين المغرب والمشرق إنّما هي علاقة تفاعل، ولا أدلّ على هذا ممّا كان يحدث من مناظرات بين الأدباء والفقهاء قديما، أذكر مثالا واحدا أراه كافيا، ألا وهو مثال الغزالي وابن رشد. ولا أحبّ أن أقول إنّ ابن خلدون كان فريد عصره مشرقا ومغربا، لأنّه ولئن كان مغربي النّشأة والتّكوين فإنّه يعتبر من سلالة الثّقافة العربيّة. فماذا يكون ابن خلدون لو أنّه لم يطلع على تاريخ المسعودي أو على كتاب مسكوية "تهذيب الأخلاق"؟ أمّا بالنّسبة للحركة الثّقافيّة والعلميّة، فإنّ العلماء والأدباء العرب كانوا دائما يرحلون، ويدرسون، ويشتغلون دون هذه الحواجز القائمة اليوم، وإذا نظرنا إلى هذا العصر، فإنّ الشّابي مثلا يعتبر الحلقة الموجودة بين جناحي الثّقافة العربيّة، لأنه تمكّن من ناحية أن يستوعب الحركة التّجديديّة التّي ظهرت على يد جبران ونعيمة والعقّاد مع الإضافة إليها من واقعه المحليّ. فهو بتجربته تمكّن من التّفاعل مع آخر إرهاصات عصره.

## مراجعة تراثنا الشّعري

- من خلال ملتقى أبي القاسم الشّابي الذي اِنتظم خلال شهر تشرين الأوّل –أكتوبر الفائت بمناسبة مرور خمسين عاما ـ سنة 1984 ـ على وفاة الشّاعر، قدّم الأديب اللّيبي خليفة محمّد التلّيسي دراسة قال فيها إنّ أبا القاسم الشّابي هو الذّي أسكن الشّعر منطقة غرب الوطن العربي، وأنّ الذين جاؤوا قبله، خلال القرون الفائتة، لم يكونوا سوى نظامين مقلّدين، وغير مبدعين بالمفهوم الحديث والجوهريّ للإبداع الشّعري. هل توافقه في ذلك؟

- هذه المقولة تدفعنا إلى مراجعة تراثنا الشّعري في مغرب الوطن العربي، وقبل هذا: هل أنّ هذا التّراث قد نُشر؟ فأنت، إذا دخلت قاعة المخطوطات بإحدى المكتبات الوطنيّة في تونس أو الجزائر أو الرّباط أو طرابلس، فإنّك تبقى مذعورا أمام آلاف النّصوص التّي ما زالت دون ضباط ودون أدنى مراجعة. لهذا، فإنّني أبدي تحفّظي من الإبداعات العربيّة في هذه الرّبوع، ولعلّ الأستاذ التلّيسي يقصد حثّ الشّعراء على إعادة النّظر في مفهوم الكتابة الشّعريّة الّذي ظلّ سائدا قرونا طويلة في جناحي الوطن العربي.

  قد يكون الشّابي سبق غيره إلى تعاطي المفهوم الحديث للإبداع الشّعري، لكنّه كشاعر لم ينبعث من عدم، بل أخذ عمّن سبقه من الشّعراء في المنطقة، وصحيح أنّ الشّابي كان إستثناء في بيئة متمسّكة بالمذهب المالكي الذي لا يميل فقهاؤه كثيرا إلى قول الشّعر في غير المواضيع "الجادّة"، إلاّ أنّه يعتبر من ناحية أخرى اِمتدادا للمدرسة النّقديّة التّي انشأها ابن رشيق القيرواني، ومستعملا مدوّنة ابن منظور اللّغويّة. إذن، بقدر ما أخذ الشّابي عن جبران أو العقّاد والمدّ التجديدي الذي ظهر في مشرق الوطن العربي في بدايات هذا القرن، بقدر ما كان وريثا شرعيّا للنّظريات المتقدّمة في الشّعر التّي ظهر خلال القرون الماضية في القيروان خاصّة، مع إستفادته من ترجمات الشّعر الغربي. فالشّابي ذو ثلاثة أبعاد في تجربته، ألا وهي البعد التّاريخي، البعد العربي والبعد الغربي.

- الطّفولة حاضرة في شعرك حيث نقرأ دعوة تكاد تكون صريحة إلى العودة إلى عالم الطّفولة. والطّفولة هنا تأخذ معاني البداية، والصّفاء، والأمل. هناك أيضا ربط بين الطّفولة والصّحراء ...

- الشّعر هو عندي عودة إلى الأصل، ففي الومضة الشّعريّة، كتابةً أو قراءةً، أشعر بصلة حميمة مع الأشياء الجميلة التي اِفتقدتها، أو تلك التي أطمح أن أسكن فيها. وطفولتي كانت جميلة جدّا برغم أنّ الجنوب التّونسي يفتح على بوابات الصّحراء الكبرى. هذه الصّحراء التي هي أيضا تجمع الوطن العربي، وما يمكن أن نقوله هو أنّ الوطن العربي امتداد من الصّحراء إلى الصّحراء. وتجربة الصّحراء عندي مبعث للحلم حينما كنت أجلس أنتظر أبي الذي لا يأتينا إلاّ مرّة واحدة في العام، ليبقى معنا شهرا أو شهرين. والصّحراء كذلك ورود إلى البئر التي تنضب في الصّيف، وهي أخيرا أشعار البدو ومسامراتهم في اللّيل تحت رداء النّجوم. وحدث أنّني رحلت عن الصّحراء في العاشرة من عمري لأستقرّ في العاصمة طلبا للدّراسة، فظللت أحسّ بالحنين إلى الفضاء الشّاسع الذي افتقده كلّ يوم بين حيطان المدينة، والصّحراء هي حيّز الطّفولة الذي ما اِستطاعت أن تحجبه عن عيني كل مشاغل الحياة الحاضرة.

- هناك أيضا في شعرك محاورة لعناصر الطّبيعة: الرّيح، الجبل، الحصى، الغيوم ... كلّ شيء يتجسّد في كيان، فيكاد يتأنسن ...

- أنا مندهش دوما، وذاهل أمام شساعة هذا الكون وأمام ثراء الماضي، لكنّني أظلّ دوما متيقّظا بمواجهة هذا الواقع الشّرس الذي أتحرّك ضمنه، إنّه واقع يُميت فينا حرارة إنسانيّتنا، وصفاءنا وبراءتنا التّي نفتقدها يوما بعد يوم.

تصوّر مثلا أنّنا نبقى مجرّد متفرّجين أمام جهاز التّلفزيون حينما تعرض مذابح صبرا وشاتيلا. أو ليست أعصابنا وأحاسيسنا قد تحوّلت إلى خشب عندما نرى أشكال الدّمار الشّائعة في عالم اليوم فنتساءل: هل أنّ الإنسان اليوم جدير بجلال هذا الكون؟

## النّفس العربي الفصيح

- بعد أن فشلت بعض التّجارب التحديثيّة التّي ظهرت في السّتّينات وبداية السّبعينات، يبدو وكأنّ الشّعر العربي في تونس قد وجد أخيرا مخرجا من مأزقه القديم. كيف تبدو لك التّطوّرات التّي شهدها في السّنوات الأخيرة؟

- إنّ الشّعر العربي في تونس يعيش هذه الأعوام مرحلة خصبة ستظهر عطاءاتها في أواخر هذا القرن، لأنّ النّفس العربي الفصيح قد عاد إلى السّاحة الشّعريّة بعدما ظلّت سنوات عديدة تتجاذبها نزعتان لم تكونا دافعتين، هما النّزعة التّقليديّة البحتة للشّعر المشرقيّ والنّزعة الإقليميّة الضّيّقة التّي حاولت الكتابة باللّهجة العامّية وباللّغة الفرنسيّة. وأعتقد أنّه درس قاس كان لا بدّ منه نتيجة للأطروحات السّياسيّة التي كانت سائدة في الأوساط الثّقافيّة التي لم تقبض على الخيط الصّحيح لهذه الفترة التّاريخيّة. إذ تصوّر البعضُ أنّ الخلاص هو في التّعلّق بأسمال الغرب بشقّيه اليميني واليساري، مُقَولبين إيّاه في علب جاهزة. فبإسم الجماهير مثلا كان بعض الشّعراء يكتبون بمفردات هجينة لا ترقى حتّى إلى لغة الخطاب اليومي. وبإسم المحافظة على سلامة اللّغة العربيّة، كان البعض الآخر يكتب بلغة تجاوزها حتّى الشّابي منذ نصف قرن، ومنذ منتصف السّبعينات ظهرت أباطيل العديد من التنظيرات على محكّ الواقع، فتساءل المبدعون في تونس: كيف نكتب الشّعر الجيّد؟ ومن هنا اِنطلقت التّجربة الشّعريّة عندنا بعد أن اِتّفقت على تفشّي الرّداءة. فراجع مَن راجع نفسه، وتراجع مَن كان قد أخطأ، وتجاوز من كان قادرا على التّواصل ...

والشّعر العربيّ في تونس ينهل الآن من عدّة منابع هامّة أهمّها: منبع التّراث لغةً وتجربة تاريخيّة ونفسا أصيلا ثمّ التزاما بالواقع المحليّ التّونسي في خضمّ أرجاء الوطن العربي، وثالثا الإستفادة من الإنجازات الإنسانيّة على المستويات الفكريّة والفنيّة.

أجرى الحوار: محمّد رضا الكافي